obeikan.com

الحل

بينما كنت أكتب هذا الكتاب، استخدمت تطبيق الحرية (Freedom). يمكِّنك هذا التطبيق لبضع ساعات -تقرر عددها أنت- من الكتابة على حاسوبك مع إلغاء الوصول إلى الشبكة العنكبوتية. لماذا نجد، أنا وبعض الكتَّاب الذين أعرفهم، هذا التطبيق أداة مفيدة للغاية؟ لأننا بحاجة إلى حماية أنفسنا من الإلهاءات الموجودة في كل مكان على الشبكة؛ علينا إذًا اتباع إستراتيجية محددة، فهي حربٌ دعائمُنا فيها الإبداع والقدرة على العمل.

إن القراءة، كما الكتابة، عمل إبداعي كما ورد في مقولة إيمرسن ذائعة الصيت. وليس بإمكانك الإبداع وسط عاصفة من الاحتمالات المبهرجة، كل منها يحاول الاستحواذ على انتباهك، فأنت بحاجة إلى التحكم والهدوء والعزلة، ولذلك عليك الابتعاد عن الزوبعة الرقمية المحيطة لتتمكن من التركيز. ويمكِّن التحرر من المنبهات المحيطة المفرطة من تقدير الشيء الموجود أمامنا على نحو ملائم، وهو سلسلة الكلمات على الصفحة. فعندما نتحرر من ضغط الاستجابة في كل لحظة إلى شيء ما خارج كتابنا، نصبح قادرين على القراءة بتأنٍّ وتمعُّن.

سرعان ما تقوم الشبكة بقولبة نفسها لإرضائنا وموافقتنا فيما نحب ونكره، فتعرض خيارات سريعة لتناسب أذواقنا، إنها تزودنا بقوة المستهلك التي هي على وسعها سطحيةٌ، فنأخذ حاجتنا ونذهب. وعلى النقيض من ذلك، فإن القراءة المتأنية تعني أن نُخضع

أنفسنا لمؤلف ما بصورة تدريجية. فالتأني يعني الاكتشاف، والكتاب الجيد يُطِلُّ علينا ويشرق في أنفسنا بحلاوة وقوة تدريجيتين. وكما يؤكد راسكن في جداله الانفعالي بعنوان السمسم والسوسن Sesame and Lilies (وهو نقاش قديم عن القراءة سأعود إليه في فصل (القواعد))، فإن ما نحصل عليه من كتاب جيد مقروء بتأنٍّ وتمعن هو التثقيف. وعندما نسير بروية، نكتشف ما يفكر فيه الكُتَّاب حقًّا، ونتيجة لذلك نقوم بتطوير عقولنا. هذا النوع من التثقيف لا يمكن للشبكة العنكبوتية تزويدنا به.

هناك حركة جديدة تناصر التأني؛ وهي التأني في الطعام، والتأني في السفر، والتأني في تكوين الصداقات (على عكس الصداقات المجنونة لآلاف من الغرباء تقريبًا على موقع Facebook)، والتأني في العمل أيضًا. ويشير كارل هونوريه Carl Honoré أحد مناصري هذه التوجه إلى أن شركة IBM طلبت من موظفيها التقليل من عدد مرات تفحصهم لبريدهم الإلكتروني، وأن عددًا من الشركات قامت ببناء أماكن للاستراحة لعمالها، وأضافت أوقاتًا إلزامية للاستراحة إلى يوم العمل. إن القراءة المتأنية هي جزء من الفكرة الجديدة عن التأني، وهي الحل للأعصاب المنهكة والاهتياج المعتوه أحيانًا للعالم المتشابك الذي نعيش فيه. وليست القراءة المتأنية حملة منظمة، وليس لديها منبر لفريق بعينه. فمثل مصطلح القراءة المعمقة، أصبح مصطلح القراءة المتأنية قضية في التسعينيات من القرن الماضي (مع أنه مصطلح له ارتباط طويل ومميّز، كما سأشرح بعد قليل). لقد ناصر الناقد سفين بيركيرتس Sven Birkerts القراءة المتأنية، أما جون ميديما وَتوماس نيوكيرك John Miedema, Thomas Newkirk وآخرون فقد كتبوا منذئذٍ كتبًا عنها.

وللقراءة من ذلك النوع الحريص تقاليدُها، إذ أسس روبن براور من جامعة هارفرد Reuben Brower قبل ستين عامًا من الآن، منهجًا فيما سماه، للمرة الأولى، القراءة المتأنية، وتعود تلك التسمية إليه بالمعنى الدقيق للكلمة، مع أنه مشهور أكثر بصفته مؤسس (القراءة من كثب)، وهي فكرة شديدة الشبه بالقراءة المتأنية. وأصبحت القراءة من كثب تقنية واسعة الانتشار لتدريس الأدب في الخمسينيات، جزئيًّا من خلال كتاب مؤثر (يستحق

القـراءة طبعًـا) ، ككتـاب **فهـم الشـعر** Understanding Poetry لـ كلينث بروكس وَروبرت بن وارن Cleanth Brooks and Robert Penn Warren لقد أصبحت القراءة من كثب ضيقة الأفق أحيانًا، بل عقيمة، عندما سيطرت على حصة الأدب؛ إذ نزعت إلى إعلاء شأن نوع معين من الأعمـال علـى سـواه، وهو نوع كان يفخر بما يزخـر به من الغموض المحكم بدقة. ولقد كان مرَحَّبًا بـ جون دون أكثر من د.هـ. لورانس في شـريعة القارئ من كثب، لكن صلة هذا التطور بتقنيـات القـراءة هـي أقـل منها بقيم وذوق الأسـاتذة في عصـر ما بعد الحـرب. وفي منهج براور الأصيل كانت نظرة الأدب أكثر عطاءً، إذ كانت القراءة المتأنية، أو تلك التي من كثب، تعني وقْف النفس على كتاب ما، أيًّا كان ذلك الكتاب.

فـي جامعـة هارفرد، قـام براور وزملاؤه بتعليـم طلابهم أن يزنوا خيـارات المؤلف من الكلمـات، وأن يـروا كيـف أن نقاطًـا أسـلوبية صغيـرة تحـدث فرقًا كبيـرًا. كما أصـر على أن القـراء يجـب أن يأخذوا وقتهم في تعرُّف الكتاب، وفهم إيقاعه وجَوِّه العام، واكتشـاف كيفية عمله. وأكد براور أن الخطوة الأولى في تعلُّم القراءة بصورة أفضل هـي التمهل. أما مصطلح (القـراءة المعمقـة) ، الـذي أشـرت إليه بضع مرات حتى الآن، فقد طوره سـفين بيركيرتـس بعـد عقـود مـن الزمن، في عـام 1994م. ويعنـي بيركيرتـس الشـيء نفسـه الذي عنـاه براور، وقصدي هو: التمهل للسـماح للكتاب بالاسـتحواذ عليك، ولتتمكن من تعرُّفه بصورة أفضل. لقد كان براور يتجه ضد الحشد العاصف للإسهاب على الإذاعة والتلفاز، وفي الجرائد؛ أما بيركيرتس فقد كان ضد النماء الأبدي للشبكة العنكبوتية بنزعته لتشويه مدة الانتباه لدينا، ومحاصرتنا بمصادر إلهاء شوهها محرك البحث غوغل.

لم تبدأ القراءة المتأنية في هارفرد، بل في الأراضي المقدسـة القديمة ، حيث تجادل رجال الدين والمفسـرون حول شـخصيات الإنجيل وقصصه من قرابة عام 200 ميلادية وما بعـده. وغالبًـا مـا كانت مناظـرات الأحبار تـدور حول تحويـرات صغيرة في عبـارة أو كلمات بعينها؛ إذ لم تكن أي ميزة شـديدة الدقة بالنسـبة إلى اعتباراتهم التي غالبًا ما كانت مثيرة للجـدل. إن أعمـال الحاخامـات اليهـود -التلمـود والمدراش- (مشـتقة من الكلمـة العبرية

دَرَشْ، أي (يبحث))، غالبًا ما تكون وهمية وخيالية بصورة عميقة في تفاسيرهما للإنجيل. لكن هؤلاء القراء الأوائل عكفوا على التفاصيل بصورة حريصة ما تزال تتحدث عن نفسها حتى يومنا هذا. فعلى سبيل المثال، تساءل الأحبار لماذا يقال إن اليوم الثاني فقط من أيام الخلق الستة الموصوفة في بداية سفر التكوين لم يكن جيدًا (إجابتهم هي التالية: لأن اليوم الثاني هو يوم فصل السموات عن المحيط الذي تشكل حديثًا، أي ضمنيًّا فصل الرب[1] عن بقية العالم، وهذا أمر ليس بالجيد)، وهناك لغز آخر هو: فقط في نهاية الفصل الأول من سفر التكوين، وبعد أن أوائل البشر، يحتسب الرب الخليقة (جيدة جدًّا) أكثر منها (جيدة)، وهو تفصيل عزم المفسرون على شرحه أيضًا، إذ يصبح العالم جيدًا جدًّا أكثر منه جيدًا فحسب، لكن بعد إضافة البشر إليه؟ (فما رأيك؟) إن الحبرين اللذين كتبا مدراش، واللذين واجه أحدهما الآخر بمناظرات في صفحات التلمود، رحبا بمشاركات قرائهما، وكان على هؤلاء القراء أن يقرروا بأنفسهم ما قد تعنيه الفروق الدقيقة في النص. وغالبًا ما تعارض التفسيرات المتنافسة بعضها بعضًا في التلمود، ويُتَوَقَّع منا [نحن القراء] أن نشارك في الجدال.

ولربما لم ينتبه روبن براور وزملاؤه في هارفرد إلى التعليقات اليهودية الأولى عن الإنجيل، فلو عرفوها لكان بُعدُ الأحبار المتكرر عن معنى النص قد سبَّب لهم الإحباط. إن الحكماء اليهود غالبًا ما يكونون متألقين ودقيقين ومخلصين للكلمات على الصفحة؛ لكن عندما لا يكونون كذلك فإنهم ينحرفون بحيث يخترعون كتابًا جديدًا كليًّا مكان الإنجيل الذي نعرفه، بدلًا من أن يعمدوا إلى التفسير وحسب. وثمة مزيج من التأملات الجريئة في التفسيرات اليهودية للإنجيل، كما في المسيحية اللاحقة منها؛ وهو عزم على أن يحمل النص المعنى الذي يريد له المرء أن يحمله. ويستفيض كتاب المدراش في قصص شخصيات الإنجيل المرافقة المختَلَقَة، ويخصص صفحاته لملء فراغات النص الإنجيلي

(1) في الكتاب كثير من النصوص المنقولة من الكتب المقدسة لدى الأمم الأخرى معتقدين - نحن المسلمين - بتحريف تلك الكتب وتزويرها، لكننا لا ننقلها لأننا موافقون عليها، وإنما ننقلها للأمانة العلمية للترجمة، ونحن على ثقة بأن قراءنا الأفاضل لديهم الباع العلمي الذي يميزون به ما بين الحق والباطل. (المراجع).

الموجز بخيالات مطلقة مستفِزَّة، فنحن لا نرى القصة الشهيرة لإبراهيم الذي حطم أصنام أبيه تارح في سفر التكوين، لكن معظم طلاب المدارس يعرفونها جيدًا؛ من قصص المدراش طبعًا.

إن براور وأصدقاءه من معلمي القراءة المتأنية تجنبوا الدافع لاختلاق قصص عن الكتب التي نقرؤها، وفي هذا الجانب علينا اتباعهم هم لا الأحبار/الحاخامات القدماء. فالقراء المتأنُّون لا يشكلون حبكة لقصة قصيرة أو قصيدة، ولا يتخيلون ما يمكن أن يكون قد حدث قبل أو بعد الأحداث التي يصفها الكاتب لنا، وعوضًا عن ذلك، يلتزمون بالنص المُعطى لهم، ويحاولون البقاء مخلصين قدر الإمكان للكلمات المكتوبة.

في مقالة مشهورة بعنوان **القراءة بالحركة البطيئة** Reading in Slow Motion استهجن براور «منهج التذوق القديم الذي كان يعتلي فيه المعلم المنصة وينشد كلامًا زاخرًا بالانفعال هو وحده القادر على فهمه، ويحفظه الطلاب، مع عدم الدقة الاعتيادي طبعًا، من أجل الامتحانات القادمة»، وأراد أن يكون الطلاب- عوضًا عن ذلك- هم من يكتشفون ماهية قراءة قصة أو قصيدة أو رواية بعينها، فكان عليهم المشاركة بدور فاعل ورؤية كيفية عمل النص. «فلنرَ ما الذي يمكننا فعله بهذا النص» كان هتافه في صفه لبدء المعركة. فكان المعلم يعمل مع الطالب جنبًا إلى جنب، كانوا شركاء؛ ليس في الجريمة بل في متع القراءة والفهم. وكتب براور أن «أدب الدرجة الأولى يستدعي قراءة مليئة بالحيوية؛ أي علينا أن نقوم بالتمثيل كما لو كنا نأخذ أدوارًا في مسرحية»، وعلينا كذلك أن نبذل الجهد لتقمص الأصوات المتحدثة في الكتاب، وأن نعيش، لبضع ساعات، في عالمه.

لقد ادعى براور أن الأدب مميز «في كماله الغامض، وفي عدد عناصره المُتَضَمَّنة، وفي التنوع والتقارب في علاقاتهما». لقد كان محقًّا، فالأدب يستحق انتباهنا لأنه مصنوع على نحو ممتاز، ولأن بإمكاننا تشرُّبه في أنفسنا، وتغذيتها بملاءمة كلماته وقوتها. إن قطعة أدبية قَيِّمة ليست على الإطلاق شرحًا لعقيدة أو فكرة أخلاقية أو حدث تاريخي، بل هي شيء حي معقد ومتذبذب تمامًا كإنسان حي. وعلينا أن نعيش مع الكتاب، مدة وجيزة على الأقل،

obeikan.com

لنتمكن من رؤيته بحق. ومن هنا نرى أن نظام براور في القراءة بالحركة البطيئة ضروري، فبدلًا من ابتلاع كتبنا، علينا محاولة هضمها برويَّة.

إن الانضباط الدقيق، شرط أن يكون شغوفًا، الذي كان براور من مناصريه، ما زال موجودًا في بعض المناهج الأكاديمية، لكن غالبية الكليات والجامعات تهمل القراءة معظم الأحيان، وتحث الطلاب على استخلاص فحوى الكتاب بدلًا من القراءة؛ أي لا تعيروا اهتمامًا للتفاصيل، للطريقة التي يكتب بها شيء ما، التقطوا النقاط الأساسية فحسب، وكونوا مستعدين لمناقشتها في الامتحان. إن صعود الدراسات الثقافية هو جزء من المشكلة؛ فلقد تحول الاهتمام الأكاديمي الآن من السيدة مادونا إلى الليدي غاغا بصفتها موضوعًا جوهريًّا، وهكذا تستمر معاناة الولاء للفارق الأدبي الدقيق. وتخضع أقسام اللغة الإنكليزية للتوجهات الحديثة باندفاع، وهو أمر ليس في مصلحة الطلاب دائمًا؛ إذ إن الرغبة في قراءة الكتب بكياسة وحب، والاستغراق في عالم شكَّله المؤلف، قد تنحى جانبًا ليفسح بصورة كبيرة المجال للتعليق على الأساليب الاجتماعية وصور وسائل الإعلام، سواء كانت تتعلق بالعصر الفيكتوري أو بيومنا الحالي. وبدلًا من الأدب أصبح تاريخ الحياة الاجتماعية الموضوع الحقيقي في بعض أقسام اللغة الإنكليزية.

وكما هي الشبكة العنكبوتية، فإن الأكاديمية تقف أحيانًا عائقًا في طريق القراءة العميقة (المتأنية، من كثب). فلو أردت أن تختبر استجابات قارئ حقيقي فيما هو مطبوع، فمن الأفضل لك غالبًا أن تقرأ مقالة في مجلة New Yorker أو New Republic أو New York Review of Books (أو مجلات مشابهة)، من أن تقرأ مقالًا في دورية أكاديمية، فبعض المقالات الأدبية جيدة الكتابة، لكن عندما لا تكون كذلك، يصعب الوثوق بنظرياتها عن الكُتَّاب. وعليك أن تعير اهتمامك فقط لتلك المقالات والمراجعات التي تحاول أن تعطيك لمحة عن ماهية الإحساس لدى قراءة عمل لمؤلف معين، وبينما تفعل ذلك تكون قد قدَّمَتْ دفاعًا عن قيم ذلك المؤلف. إن الأفكار الكاسحة المجردة عن الحداثة أو الرأسمالية أو التطور نادرًا ما ينتج عنها رؤى مفيدة عن الكتب.

لقد انتصر لينزي وُوترز في مقالته بعنوان **حان الوقت للقراءة** Time for Reading، وهي مقالة مستفزة كتبها لدورية Chronicle of Higher Education في عام 2007م، للقراءة المتأنية بوصفها الترياق للأساتذة الذين يقّصرون الكتب على عبارات عن التاريخ والمجتمع، ويستخدمون الأدب بصفته مجرد مصدر للمعلومات. ولقد كتب ووترز أن «المشكلة في قصر الكتب على الموضوعات والأخلاق تكمن في أنها تستخف بتجربة القراءة»؛ فعلينا أن نخصص الوقت والمكان لاختبار ما نقرأ بحق والاستمتاع به.

إن القراءة بغرض الاستمتاع بدلًا من القراءة من أجل درسٍ مركَّز تستغرق وقتًا، ورغبة في إعادة القراءة. ولقد أشار ووترز إلى أننا، غالبًا، نتعرَّف حقًّا كتابًا ما فقط عندما نعيد قراءته؛ لأننا «نتعلم أننا نقرأ بسرعة كبيرة في المرة الأولى». ويضيف ووترز أن نيتشه كان قد عرَّف عمل فقيه اللغة بالقراءة المتأنية: «وهو أن ينفرد جانبًا، وأن يستغرق وقتًا، ويصبح ساكنًا، ومتأنيًا». لا يمكن أن يكون هناك شيء أكثر تضادًا مع ثقافتنا المعتمدة على النتائج السريعة والقرارات المتسرعة، من هذا التعريف.

إن القراءة بصوت عالٍ والحفظ هما- كما إعادة القراءة- طريقتان فاعلتان للتأني وتشرُّب ما أمكن من إيقاعات ما تقرأ ومعناه. فبإمكانك البحث عن مقتطفات أدبية مثل Committed to Memory التي حررها جون هولاندر، أو Essential Pleasure التي حررها روبرت بنسكي، أو من الممكن أن تتوقف برهةً لتقول مقطعًا مفضلًا لديك، فإذا كان مقطعًا حواريًّا، فأطلق العنان لميولك المسرحية عندما تقرأ بعض الأسطر بصوت عالٍ.

لقد تلاشى التقليد العائلي بقراءة كتاب ما معًا وبصوت عال، لكن لم يكن ضروريًّا أن يحدث ذلك، صحيح أنها عادة تتطلب وقتًا وجهدًا، لكنها تسلية مثيرة وتستحوذ على الاهتمام، فهي تجمع أفراد الأسرة معًا حول نص مشترك. إن القراءة المشتركة تُمارس في أوساط أخرى أيضًا، كتلك الخاصة باليهود المتدينين عندما يدرسون التلمود مع شريك آخر أو مجموعة، ودائمًا ما يقرؤون الفقرة بصوت عال قبل المناقشة في كل تفصيل وكل فارق بسيط. عندما تقرأ مع من تحب، تصبح خاضعًا لإغراء باولو وفرانشيسكا في عمل دانتي Inferno (الجحيم):

obeikan.com

فبعد أن استغرقا في حكاية حب شجاع، يخبرنا دانتي ببلاغة أنهما «لم يقرأا بعد ذلك اليوم أبدًا». قد يبدو الحفظ مهمة مفزعة، لكن يكمن السر في القيام به خطوة تلو الأخرى. ففي عام 2009م، وصف جيم هولت في افتتاحيةٍ كتبَها لصحيفة New York Times كيف أنه حفظ مجموعة كبيرة من القصائد العظيمة؛ فكان يضيف في كل يوم سطرًا أو اثنين إلى ما كان قد حفظه سابقًا، وبذلك يعلّق كل قطعة جديدة بسابقتها التي كان قد حفظها. وقبل أن يدرك، كان قد حفظ قصيدة بأكملها عن ظهر قلب. فوجد نفسه ينشد للشاعر كيتس أو شكسبير في أوقات فراغه، وعندما كان يسير في الشارع أو ينتظر في الطابور أصبح يعتمد على كلمات الشاعر في (أعماق قلبه) (كما كتب ييتس في قصيدته The Lake Isle of Innisfree).

اختتم هولت افتتاحيته بالإشارة إلى أنه دحض ثلاث أساطير عن حفظ القصائد؛ هي:

الأسطورة رقم 1. إن الشعر صعب الحفظ. ليس صعبًا على الإطلاق، إذ يمكن أن تحفظ بيتًا أو اثنين في اليوم.

الأسطورة رقم 2. لا يوجد متسع كاف في ذاكرتك لتخزين الشعر. تلك مقارنة سيئة، فالذاكرة عضلة وليست إناء سعته ربع غالون.

الأسطورة رقم 3. الجميع بحاجة إلى جهاز آي بود. لا، لست بحاجة إليه، فيمكنك حفظ الشعر عوضًا عن ذلك.

عندما كنا أطفالًا، كنا نحفظ أناشيد الأطفال والأغاني والقصص المحببة من دون مجهود، وفيما بعد حفظنا عهد الولاء الصباحي وخطاب غيتسبره[1] (في أيامي على الأقل)... وربما مناجاة أو اثنتين لشكسبير. يحفظ معظم البالغين الأمريكيين العشرات، بل المئات من الأغاني الرائجة عن ظهر قلب، فلم لا يحفظون القصائد؟

غالبًا ما نفكر في القراءة بصفتها فعلًا منعزلًا، لكن الحديث عن الكتب، كما الحديث عن الأفلام، يعزز خبرتنا أكثر مما نتوقع؛ إذ من الممكن أن يساعد القراء الآخرون، فأنت

(1) خطاب ألقاه الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن في مدينة غيتسبيرغ بولاية بنسلفانيا سنة 1863 بمناسبة تدشين المدافن القومية للجنود الأمريكيين.

لست بمفردك، ومن الممكن أيضًا التحدث مع أعضاء آخرين من مجموعة تقرأ كتابًا ما، أو الزملاء في الصف، أو الأصدقاء، حتى أولئك الذين نعرفهم عن بعد من خلال الشبكة، والذين تمكنَّا اليوم من الوصول إليهم من خلال التقنية الحديثة (التي أدت نفعًا في هذا المجال على الأقل).

في أحاديثنا الأزلية عن الكتب، نواجه اختلافات في الرأي لا محالة؛ لاختلاف الأذواق، ففي حين أطلق ثيودور روزفلت على هنري جيمس لقب (كتلة صغيرة من السفاهة)، يعدُّه آخرون أعظم مؤلف روائي أمريكي لدينا. (لقد كان روزفلت، بالمصادفة، قارئ روايات نهمًا، قادرًا على التركيز على كتاب ما حتى في أصعب الظروف. ويُذكر أنه خلال شتاء قارس في منطقة داكوتا، قرأ رواية آنا كارينينا Anna Karenina كاملة وهو يسير لمسافة 40 ميلًا على الثلج؛ وكان وقتئذ يقود لِصَّين كان قد أمسك بهما بعد أن سرقا زورقه. وبينما كان يحمل بندقيته من طراز وينشستر، كان يراقب المحتالَين بعين، ويقرأ الصفحة بالعين الأخرى. قلائل منا أولئك الذين يمكنهم مقاومة الانتباه الجزئي المستمر في موقف كذاك، لكن روزفلت قرأ رواية تولستوي بتفانٍ فريد).

ليست كل الكتب ملائمة لجميع القراء، فلن يعجبك كل ما هو موجود، بل ليس عليك أن تحاول الإعجاب به، حتى إن كان الكتابُ المعني مشهودًا له بأنه (عظيم). ويبدو أنني أعاني نفرة من فولكنر Faulkner (وأدرك أنه من الممكن أن أكون قد خسرت بعضًا من قرائي للتو بقولي هذا الكلام)، لكنني أدرك أن الجميع تقريبًا يعدُّه مؤلف تحف فنية. وأيًّا كان السبب، ببساطة، لا يمكنني أن أُحب أعماله كما أَحبها العديد، لكن أعلم أن هذه هي حدودي الخاصة، لأن العديد من الناس الذين أحترم حكمهم الأدبي يعشقون رواياته. في الواقع أحب بعض أعمال فولكنر كالقصة الجميلة الخفيفة بعنوان Wild Palms التي تشبِك قصتين روائيتين مذهلتين بطول الرواية القصيرة، لكن لن يكون فولكنر أبدًا أحد المؤلفين المفضلين لدي.

لقد كانت هناك سلسلة بارزة من (معارك الكتب) عبر القرون (سيعطيك عمل جوناثان سويفت Jonathan Swift الهجائي الاستثنائي الذي كتبه في القرن الثامن عشر

بعنوان The Battle of the Books إحساسًا بهذا النوع من العراك). إن الجدالات حول كيفية الحكم على قيمة الكتب أبدية ولا يمكن تجنبها، كما أنها عظيمة الفائدة أيضًا. ويمكن للنقاشات من هذا النوع أن تكون منشِّطة ونافعة، أيًّا كان من نقف إلى جانبه، إذ بإمكانها إنقاذنا من إصرار ممل على ذوقنا الخاص. فعلينا أن نوسع هذا الذوق لنرى إلى أين بإمكانه أن يأخذنا. عليك أن تقسو على نفسك قليلًا؛ فكر لماذا أحببتَ أو لم تحب شيئًا ما في كتاب؟ وكيف يمكن لأحد آخر أن يستجيب لحكمك؟

حاول أن ترى العمل الأدبي برمته، وأن تقدِّر أهداف المؤلف؛ فعندما تفعل ذلك، ستتمكن من تجنُّب رأيك الغريزي غير الناضج. وبينما تُعمل الفكر في الأمر أكثر، ترى أن عبارة (كرهت تلك الشخصية!) قد تُواجَه بـ«ألمْ تعتقد أنها كانت تشكل ضدًّا ممتازًا للبطل، وهو ما جعلني أرى كيف كانا يشكلان توازنًا معًا».

يجب على القرَّاء فهم قِيَمِ المؤلف، فالكتب الجيدة هي طرق لرؤية العالم، فلو أزعجنا ما نعتقد أنه انحياز أو ضغينة من جانب المؤلف، فإن الاحتمالات القائمة هي أننا لم نتعمق كفاية في مشروع المؤلف. أولًا، على القارئ أن يحقق تعاطفًا مع فكرة الكتاب في نفسه، فإن انتهى به المطاف برفض الكتاب، فيجب أن يأتي ذلك القرار بوصفه اكتشافًا أكثر منه فعلًا انعكاسيًا. كثيرة هي الكتب التي تعتمد على تقييمنا لشخصية المؤلف، بداية من الصفحة الأولى ثم ما بعدها. وحتى عندما لا نحب كتابًا ما بالغريزة، فعلينا أن نفهم لماذا. إن شخصية المؤلف تعبر عن قيمه، وقد تختلف قيمنا الخاصة بنا عن قيمه، لكن ما زال بإمكاننا أن نتعلم شيئًا ما عن أنفسنا من خلال نزالنا مع أي كتاب، وعندما نناقش ذلك الكتاب مع الآخرين، نعلم شيئًا عنهم أيضًا.

يكتب هارولد بلوم Harold Bloom أن القراءة تُغني النفس: «إلى أن تصبح ما أنت عليه، بماذا يمكنك أن تنفع الآخرين؟». ويشير بلوم إلى أصدق مكافآت القراءة؛ وهي أن نصبح ما نحن عليه، إذ بإمكاننا أن نصل إلى هذا الهدف عن طريق مواجهة صادقة مع ردود أفعالنا

نحو الكتب، ومحاولة معرفة لماذا نقوم برد الفعل بتلك الطريقة. وبتعبير آخر، علينا القيام ببعض القراءة العميقة المتأنية.

ليتمكن القارئ من قراءة كتاب بعمق أو بتأنٍّ (سواء كان مطبوعًا أم إلكترونيًّا)، يجب عليه أن يوقف متصفح الشبكة، ويتجنب موقع تويتر والرسائل النصية، ويوقف التلفاز، ويتجاوز طنين المعدات الكهربائية ذا الصوت المرتفع والمشتِّت؛ إذ يجب أن تكون القراءة ملتجأ، وجزيرة في بحر التقنيات التي تحيط بنا طوال اليوم. إن استبعاد التقنية، ذلك الجزء الجوهري من حياتنا، أمر ليس بالهيِّن، ففي اليوم التالي ستغمز لنا شاشة الحاسوب في العمل. لكن خلال ساعات القراءة علينا أن نبعد الأجهزة التي تجبرنا على البقاء (على تواصل). وقبل العصر الرقمي بمدة طويلة، أشار هنري ديفيد ثوريو إلى أننا «في عجلة كبيرة لبناء تلغراف [آلة لنقل الرسائل إلكترونيًّا] مغناطيسي يصل بين مدينتي ماين وتكساس، لكن قد لا يكون بين المدينتين ما يُهم لتتواصلا من أجله». وعلينا أن ننظر إلى ما هو أعمق من تحديثات الشبكة الآنية التي تزودنا بها، وذلك لنتمكن من تحقيق اتصال حقيقي بالتاريخ وبالعالم الذي نعيش فيه. فإن عالم الماضي يبقى على قيد الحياة بصورة كبيرة في الكتب، كما أننا نتعرف الشعوبَ والحضارات الأخرى بأفضل صورة بالقراءة عنهم، (لأن قلة منا، حتى لو امتلكنا الوقت والمال الكافيَيْن، سيميلون إلى السفر إلى كل بلد ومقاطعة في العالم بوجود كل مطالب الحياة الأخرى).

عندما نقرأ نكون بمفردنا، لأن القراءة تستدعينا إلى نفسنا الفريدة بعيدًا عن عالم الإلهاءات، لكنها تزودنا أيضًا بروابط بعيدة المدى مع أناس آخرين. فالفراغ الذي تفرضه جزيرة مهجورة ليس صورة سيئة تحملها في ذهنك وأنت تستعد للقراءة، إذ لا يمكن لأي من عواصف الأرض أن تصل إليك هنا؛ أنت بأمان. وإن صورة الجزيرة المهجورة تعزز الفكرة بأن القراءة هي أساسًا تجربة انفرادية. ولطالما حملتِ القراءة بعدًا اجتماعيًّا، على أية حال، كما كانت الحال في السنين الأولى من حياتنا: أي عندما كنا نقوم بأولى أنشطة القراءة مع الوالدين أو المدرِّسين الذين كانوا يقفون إلى جانبنا ويرشدوننا. إن أولئك المعلمين تركوا

بصماتهم على كيفية تعاملنا مع النص؛ فأعطونا الأدوات التي نستخدمها في التقرب من الكلمات على الصفحة. وهناك، بالتأكيد، رابط اجتماعي آخر في القراءة؛ فنحن ندخل في حديث دائم، ضمنيًّا، مع مؤلف الكتاب.

إن المعلمين والآباء الذين وقفوا إلى جانبنا وعلمونا كيف نقرأ، قد فتحوا أعيننا ليس فقط على عالم من العجائب، بل أيضًا على نظام من القوانين. قد يبدو أن القوانين تقف عائقًا في طريق نشاط ما، كالقراءة مثلًا، نقوم به بدافع حبنا له. لكن فكرة أن القوانين مجرد أصفاد تقيد القارئ بعيدة عن الحقيقة، فالقراءة تتطلب مهارة مستمدة من تقنية، تمامًا كالتي يتطلبها عزف الموسيقى أو الرسم، فأي شيء تقني تحكمه القوانين دائمًا. ستقوم التقنية، والقوانين التي ترافقها، بتحريرك لا تقييدك. ويرى عالم الاجتماع ريتشارد سينيت Richard Sennett أنه «ما من شيء آلي بصورة غير واعية في التقنية»؛ فالتقنية الجيدة هي أيضًا تفكير جيد.

يدعم سينيت ما يسميه (التعلُّم العملي التكراري التثقيفي التشاركي). وفي هذا السياق نرى أنه يتجه عكس التيار؛ فنراه يشير إلى أن «التعليم الحديث يخشى التعلم التكراري بوصفه مخدرًا للفكر؛ إذ بسبب الخوف من جعل الأطفال يملون، والحرص على تقديم محفزات دائمة التغير، قد يتجنب المعلم المتنور الرتابة، لكنه بذلك يحرمهم تجربة دراسة تدريبهم الراسخ وتنظيمه من الداخل». إن نزعة العفوية والارتجال الحر تهرب من الملل، لكن في الواقع، إن التكرار المنتظم هو ما يجعلنا نتمكن من عملية ما، وهو الطريقة التي نكتشف بها ما هو ممتع حقًّا، ألا وهي الجوانب الجديدة التي تظهر عندما نمر فوق الأرض نفسها مرات عدة. ويستشهد سينيت بقاعدة إسحق ستيرن التي ترى أن عازف الكمان النزيه يصرح (كما يروي سينيت) أنه «كلما كانت تقنيتك أفضل، تمكنت من التمرن مدة أطول من دون الشعور بالملل»، فالعازف الذي يعزف سلسلة من العلامات مرارًا وتكرارًا، قد تربكه الخاصية الغريبة لجزء في القطعة التي يعزفها، وإن قيامه بالتمرين يقود إلى عمل استكشافي. وبصورة مشابهة، فإن شخصًا يرسم لوحة سيعمد إلى تصحيح عمله؛ فيعيد

المـرور علـى الخطوط ويختبر الاحتمالات. كما أن الكُتَّـاب يغيرون كل جملة يكتبونها تقريبًا، عدة مرات أحيانًا، في أثناء عملهم الدؤوب. إن الإحساس الملموس والواضح لشـيء مادي يتم العمل عليه- جملة ما، أو لوحة قماشية، أو قطعة من الخشب أو المعدن، أو آلة موسيقية- لهـو ضـروري بالنسـبة إلـى مهارة الفنـان أو المؤلف أو الموسـيقي، فكل التقنيـات معبرة في نهاية المطاف.

قد يبدو الأمر غريبًا أن نجرب القراءة ضمن شروط التقنية، لكن القراءة تتطلب تقنية مـا، تمامًـا كمـا هي حال الكتابة؛ فأنت تقرأ بأسـلوبك ومن منظور خاص بك تمامًا، لكن في الوقت نفسه مطلعٍ على أجيال من القراء قبلك. وبالنظر إليها بهذه الطريقة، نرى أن التقنية تنطـوي علـى تضمينـات أخلاقيـة، وفق مـا أكد راسـكن؛ فهي تطلـب تقييمًا صادقًـا للعيوب، وأمنيـة للعمـل بصـورة أفضل. إن ممارسـة التقنية تتطلب مراجعة عمل المـرء، فتخبرك كلَّ مرة تراجع فيها بشـيء ما؛ فالمرور على المقطع نفسـه مرة أخرى (العودة إلى مقطع مذهل بطريقة مميزة من كتاب ما، على سـبيل المثال) يُمكِّن من حدوث شـيء ما؛ إذ يزودنا برؤية أعمق لما يعني ذلك المقطع. وبهذه الطريقة، يسير بنا الإيقاع التكراري للتدريب قدمًا ويوفر لنا الاستكشاف.

نحن معتادون على الاعتقاد أن التعبير والتدريب المحدود بالقواعد شـيئان متعاكسان، لكـن فـي الواقـع نحن بحاجة إلـى التدريب وقواعده لنتمكـن من التعبير عن أنفسـنا بطريقة مرضية. فليس بإمكانك أن تتحدث أو تكتب من دون إحساس مثبت بقواعد اللغة أو الأمثال. وبالطريقة نفسـها، لا يمكنك القراءة من دون معرفة الأدوات المطلوبة لسـبر أغوار نص ما، ولمعرفة كيف تتخذ بعض الكلمات معناها على الصفحة.

يرى سينيت أن «الإيمان بالصواب والبحث عنه»، أي عن الحقيقة عمليًّا، «يولد التعبير»، وثمـة فضول حول الشـيء الذي نعمل عليه- وفـي حالتنا هنا، الكتاب الذي نقرؤه- يتطور إلى جهـد مبـذول للوصول إلى حقيقتـه، ولرؤية ماهيته بحق. وبينما نكتشـف أيٌّ من التفسـيرات يصلـح وأيهـا لا يصلح، نقوم بتشـذيب الأخطاء بصورة تدريجية، فنتعلم التعامل مع أشـكال

الغموض، لا باستبعادها أو محاولة حلها بصورة غير ناضجة، بل بملاحقتها للحصول على معنى أوضح للعمل.

إن كل كتاب فريد من نوعه؛ فللاستمتاع به عليك أن تستلذ بشخصيته المميزة، ومن غير الممكن تطبيق القواعد بطريقة آلية طائشة؛ لأن ذلك سيدمر خصوصية الكتاب. فالرسم بالأرقام لا يجدي نفعًا، كما أنه لا يمكنك النجاح في حشر إبداع أدبي ضمن مجموعة مسبقة التصور من الأصناف. ونذكر جميعًا الحصص التي كان المعلم فيها يتناول الأدب وكأنه عنصر من علم تصنيف الأنواع؛ ففي مثل تلك الحصص، قد يخبرنا المعلم أن المسرحية التي قرأناها توًّا، على سبيل المثال، هي مثال عن مسرح العبث، أي إنها تمثل المعايير الثلاثة التالية: أولًا، إنها تصور عالمًا لا معنى له، وثانيًا، تظهر أن الفعل لا جدوى منه، أما ثالثًا، فهي تنصح بالانتحار. إن الكمال العقيم لمثل هذه التصنيفات السهلة غير مقنع كثيرًا، فأنت لا تتعلم شيئًا عن عمل ما أنت قادر على وضعه في قالب جاهز مناسب، تمامًا كما لا تتعلم شيئًا (بكتابة) ورقة تجميعية من صفحات متعددة من موقع ويكيبيديا. فإذا لم تحرضك القراءة (أو الكتابة)، فأنت لا تقوم بها بصورة مفعمة بالحيوية وأصيلة بما فيه الكفاية؛ إنك تعتمد على تصنيفات وتعريفات جاهزة بدلًا من استكشاف الأشياء بمفردك، وعندما تعمل بهذه الروح الكسولة وعلى تلك الشاكلة غير الدقيقة، تكون قد فوَّتَّ على نفسك المتعة بأكملها. إن كلًّا منا قادر على القيام بعمل جيد؛ علينا فقط أن ننظم أنفسنا؛ إذ ليس بإمكان كل شخص أن يكون مراجِع كتب أو ناقدًا متمرِّسًا، لكن بإمكاننا جميعًا أن نتعلم كيف نقرأ جيدًا. إن القراءة بتأنٍّ وحرص لا تتطلب موهبة خاصة؛ بل تحتاج إلى بقائك منشغلًا بممارسة شيء ما، وأن تجد نفسك مأخوذًا به.

إذا كان الكتاب الذي تقرؤه جيدًا، فهو قادر على التأثير فيك، ولذلك فأنت بحاجة إلى أن تقرر ماهية فكرتك عنه. إن الأعمال الكلاسيكية، خصوصًا، تشبه جيلًا سابقًا، وهو جيل كان يتمتع بسلطة كبيرة على عالمك، مع أنك قد لا تكون منتبهًا إلى تلك الفكرة دائمًا، فغالبًا ما نستخدم صفات الميكافيللية والكافكائية: لقد كان ميكافيللي وكافكا موجودين

Obeikan.com

قبلك، يشكلان إحساسك بالأشياء. وتمامًا كما هي حال أي شخصيات في أي نص سيناريو، فبإمكانك عدهما أبويك الروحانِيَّيْن، حتى إن كانت دروسهما سوداوية بصورة متكررة، إذ إن الآباء يثيرون القلق والتذبذب؛ فهم لا يريحونك دائمًا. من هم بالنسبة إليك، ومن أنت بالنسبة إليهما؟ هناك فرق بين تقليد (أو رفض) تكلُّف آبائنا والنضج بصورة فعلية؛ أي اكتشاف كيفية ارتباطك بهم، وما هي فكرتك عن تلك العلاقة. وكما هو حال النضج، فإن القراءة تتطلب فكرًا؛ فهي تعني تقييمك لنفسك أيضًا، إلى جانب الكتاب الذي تقرؤه.

إن كتابًا جديدًا هو عالم جديد بالكامل، عليك أن تتعرَّفه تدريجيًا، ولذلك كُنْ منفتحًا عليه، وانظر كيف تشعر إن أنت عشت هناك برهة. وعندما تقرأ، حاول الدخول إلى العالم الذي خلقه المؤلف، والبقاء فيه لساعات أو أيام قليلة. إن الكتاب الجديد هو بلد أجنبي، له عاداته وتقاليده المميزة، وأنت- القارئ- سائح بالدرجة الأولى، ومن ثم فأنت مقيم محتمل، وستمضي وقتًا أفضل ومجزيًا أكثر إذا قررت أن تكون مسافرًا متحفزًا ومندمجًا. إن الحصول على كل ما تستطيع الحصول عليه من رحلتك إلى هذه الأرض الجديدة يعني الاستسلام لمناظر وأصوات ذلك المكان، والبقاء متيقظًا لكل مفاجآته. وبإمكانك فيما بعد أن تقيِّم ما رأيت. أما إذا عشقت ما كنت تقرأ فقد تقرر العيش هناك مدة، والعودة مرارًا وتكرارًا إلى أعمال أوستن أو ميلتون أو تشيخوف.

وعندما تقوم برحلة إلى بلد آخر، فأنت بحاجة إلى خريطة، أو دليل إرشادي، وإلى (بصورة مثالية) بعض المعرفة عن اللغة الأصلية؛ إذ إن تلك هي الأدوات التي تجعل رحلتك تستحق العناء. على الرغم من اعتقادنا بأننا نسافر عفويًّا لغرض المتعة فحسب، فإننا في الواقع نبحث عن القواعد التي تحكم وجهتنا، ومعلومات عن الجوِّ والحضارة والطبيعة، فالمكسيك مثلًا ليس النرويج، ومن الأفضل لنا أن نعرف ذلك مقدمًا.

قد يكون السفر أمرًا اعتياديًّا، لكنه يتطلب تحضيرات، والأمر نفسه صحيح عن القراءة. فلا ندرك عادة أن القراءة تمرين وحرفة، حتى إنها بحاجة إلى أدوات معينة. ويقدم كتاب **القراءة المتأنية في عصر السرعة** إستراتيجيات تجعل منك قارئًا أكثر فاعلية؛ فيعلمك

obeikan.com

كيف تركز، وفيمَ تركز، وكيف تُطَوِّر الصبر والفطنة اللازمَين لتختبر كتابًا ما بحق. إن المهارات المطلوبة مختلفة تمامًا عن استيعاب القراءة والتلخيص والشرح الذي يتم تعليمه في المدارس الثانوية. والمعلومات الموجودة على موقع ويكيبيديا أو غوغل لن تمكِّن القارئ، بمفردها، من فهم كتابٍ ما بشفافية، والاستمتاع به حقًّا. إن العثور على المعلومات هو في الغالب إجراء تمهيدي ضروري للقراءة، لكنه يختلف عن القراءة بحد ذاتها. وعندما ننتهي من القراءة فإننا لا نأخذ معنا مجموعة من الحقائق أو مغزى لـ (رسالة) يوجهها الكتاب، بل ذكرى من مكان قد اختبرناه، من بلد قمنا بزيارته. إن الالتزام الشغوف والمجزي بكتاب تعلمنا أن نحبه هو النقطة الجوهرية هنا، إذ لن يصبح كل كتاب قريبًا من قلبك، بالتأكيد، بل أضمن لك إن أنت قرأت برويَّة، وبحرص، وباستمتاع، أنك ستجد عندها الكثير من الكتب التي ستحبها.

إن الكتاب التقليدي، سواء كان في صورته الإلكترونية أو الورقية المرصوصة، يبقى أفضل صيغة للقراءة. أما أنا فأفضل الكتاب المطبوع؛ لأنني أحب صورته وإحساسه، والشعور بأنني كلما قلبت الصفحات يلامس إحساسي وجود الكلمات، وشهادة مؤلف صنع الشيء الذي أحمله بين يدي. ويقول آخرون إنهم يحصلون على الشعور نفسه من جهاز كيندل أو آي باد أو نوك. (بإمكانك أن تستخدم هذه التقنية الجديدة لمصلحتك، عن طريق خربشة ملاحظات على هوامش الكتب الإلكترونية وبالاحتفاظ بيوميات القارئ بالصورة الإلكترونية).

بالنسبة إلى العديد من القراء كان الكتاب الإلكتروني، وما زال، تقدمًا مثيرًا؛ فبإمكانك اليوم أن تذهب في رحلة من دون أن تحزم حقيبة من الكتب معك. إلا أن للكتب الإلكترونية عيبًا واحدًا؛ وهو أنها تشجع الحركة نحو الأمام أكثر من القراءة المتأنية برويَّة؛ إذ إن تقليب الصفحات نحو الأمام والخلف في كتاب إلكتروني أصعب مما هو عليه في مجلد مطبوع من الطراز القديم، فالكتاب المطبوع مصمم ليساعد على القراءة المتأنية عن طريق جعل العودة إلى ما قرأت سابقًا أسهل. وعلى النقيض من ذلك، فعندما تقرأ كتابًا إلكترونيًّا،

Obeikan.com

تبدو الصفحات الأولى آخذة بالاختفاء، وليس من المفاجئ إذًا أن نجد حتى أولئك القراء المتمرسين الأكثر ولعًا بالكتب الإلكترونية غالبًا ما زالوا يحتفظون بحبهم لما هو مطبوع. ومما فاجأ الناشرين اكتشافهم أن أولئك الذين يبتاعون كتبًا إلكترونية هم نفسهم يبتاعون أيضًا كتبًا مطبوعة، لكنهم يُنهون قراءة الكتب المطبوعة أكثر مما ينهون قراءة الكتب الإلكترونية. فغالبًا ما يكون اقتناء الكتاب الإلكتروني نزوة شرائية، فهو لا يشغل حيزًا في شقة مبعثرة أشياؤها، والكتاب موجود هناك على حاسوبك اللوحي (آي باد)، أو جهاز كيندل إن حدث أن أردته، لكنه يبقى غير مرئي إلى حد كبير، أما الكتاب المطبوع فيذكرك بأنه موجود، جاهز ليحصل على اهتمامك، فهو يمتلك الوجود الذي يفتقر إليه الكتاب الإلكتروني.

وسواء كان في صورته الإلكترونية أو المطبوعة، يختلف الكتاب كثيرًا عن الموقع الإلكتروني؛ فشبكة الإنترنت عديمة الملامح، تمنع القراءة العميقة، أما الكتبُ فتعزِّزُها، إذ تفرض الكتب بناءً معينًا على القُراء، وتعود بهم إلى الوراء، في حين لا تستطيع الشبكة فعل ذلك، ويصبح القارئ أكثر ثقة وتمكنًا فورَ الإمساك بالتركيب المتطلِّب لكتاب بأكمله.

إن الحميمية مع كتاب ما ومع مؤلفه لا تأتي من دون مجهود، ففي عرضي برنامجًا للقراء لزيادة قواهم التفسيرية، وبالنتيجة زيادة استمتاعهم، أقدم هاهنا مجموعة من القوانين للقراءة. وتلك هي القواعد الخاصة بي اعتمادًا على سنوات من قراءة الأعمال الأدبية وتعليمها. إن تركيزي هنا ليس في قراءة الأعمال الكلاسيكية فقط، وإنما في قراءة أي كتاب جيد، أي: أيِّ كتاب يستحق وقتك. وعلى الرغم من أن أكثر أمثلتي تأتي من مؤلفين معروفين (وتصل بين عهدَي هوميروس وأليس مونرو Alice Munro أي زهاء 2700 عام) فإن تلك الدروس ممكنة التطبيق على أي رواية قيِّمة أو قصة قصيرة أو قصيدة أو قطعة من عمل واقعي. إن حياتنا محدودة، ولذلك نريد أن نقرأ ما يعوض وقتنا وجهدنا، فمن المنطقي أن تتحرى الأعمال الكلاسيكية، أي تلك الكتب التي وجد فيها العديد كنوزًا لا تضاهى.

أيًّا كان ما تقرر أن تقرأه، فتذكر أن تتحدى نفسك، وأن تعود إلى تشبيهي حول المسافر الأجنبي؛ ابحث في الأماكن الأدبية ذات الطابع الغريب والتعليمي، أكثر من تلك القريبة جدًّا مما

هو مألوف، وهكذا ستمضي وقتًا أفضل. فعوضًا عن اختيار عمل مثير آخر، ابحث لنفسك عن موطئ قدم في صنف أدبي آخر. وكما قال جون ميلتون John Milton في عمله Areopagiticia[1] «إن الفائدة التي نجنيها من كتب نقرؤها بصورة مختلطة»، هي أننا قد نواجه أعمالًا تتحدانا وتقلب تصوراتنا المسبقة كما لم نجرب من قبل. بإمكانك أن تواجه أشياء كتلك فقط إذا عمدت إلى الاستكشاف بصورة واسعة، وإذا أعرت بعضَ الاهتمام توصياتِ القراء الذين قاموا برحلاتهم قبلك، والذين وجدوا الأعمال الكلاسيكية التي ما زالت تذهلنا وتستحثنا غالبًا بعد المئات وحتى الآلاف من الأعوام. ويخبرني صديق، وهو كاتب معروف، أنه يقرأ فقط أعمال أولئك المؤلفين الذين ولدوا قبله. أما أنا فلا أذهب إلى ذلك الحد، لكن أعترف أنني أفضل الكتاب الأكبر سنًّا، لأنهم أبعد زمنيًّا، ولذلك لديهم الكثير ليخبروني عنه. توقظني غرابتهم؛ فيذكرونني أن عالمي ليس الوحيد، وأن لدي الكثير لأتعلمه عن العوالم الأخرى.

أَعِدِ القراءةَ قدر ما تستطيع، فلقد عدتُ، بعد عدة سنوات أحيانًا، إلى كتبٍ كنت قد عشقتها سابقًا، وفي حالات قليلة شعرت بالخيبة، لكن في حالات أخرى كثيرة اكتشفت أبعادًا جديدة في الكتاب، وأدركت لماذا كنت أشعر بذلك الارتباط العميق معها. علمت حينها شيئًا ما عن نفسي للمرة الأولى، كما علمت عن الكتاب. وفي كتابها On Rereading **حول إعادة القراءة** تعلق باتريشيا سباكس Patricia Spacks قائلة: «إعادة القراءة، بها نرتبط بنسخة أو أكثر من أنفسنا في الماضي». ويشير المؤلف الروائي روبرتسون ديفيس Robertson Davies إلى أن «كتابًا عظيمًا بحق يجب أن يُقرأ مرة في أيام الشباب، ومرة ثانية في أيام الرشد، ومرة أخرى في كبر السن، تمامًا كما تجب رؤية البناء المتقن في ضوء النهار، وفي الظهيرة، وفي ضوء القمر». إن كلمات ديفيس نصيحة ممتازة، لكن تذكر أن حواف المبنى قد تتغير جذريًّا مع مرور الزمن. «مما يدعو للفضول، أنه لا يمكن للمرء أن يقرأ كتابًا؛ بل يمكنه فقط أن يعيد قراءته»، كما كتب فلاديمير نابوكوف Vladimir Nabokov «فالقارئ الجيد، والقارئ العظيم، والقارئ المبدع والنشيط هو ذلك الذي يعيد القراءة»، وأضاف نابوكوف: «إننا عندما نقرأ كتابًا للمرة الأولى، فإن العملية المرهقة لتحريك أعيننا من اليسار إلى اليمين،

(1) نسخة من خطاب للسيد جون ميلتون ألقاه أمام البرلمان الإنكليزي في سبيل نصرة حرية الطباعة غير المرخصة.

Obeikan.com

سطرًا تلو الآخر، وصفحة تلو الأخرى، إن هذا العمل الفيزيائي المعقد المطبق على الكتاب، والعملية نفسها التي نعرف من خلالها عمَّ يتحدث الكتاب من ناحية الوقت والمساحة، تقف بيننا وبين التذوق الفني». وحين إعادة القراءة نرى الكتاب كلًا متكاملًا للمرة الأولى؛ إذ يكون عملنا التمهيدي قد انتهى، ونصبح قادرين على تشرُّبه دفعة واحدة.

عندما أطلب إليكم إعادة قراءة كتبكم المفضلة، فأنا بذلك أنصحكم أن تفعلوا ما تقوم به مجموعات القُراء في المجتمعات المتدينة لعدة قرون؛ فالنصوص الدينية الكنسية أصبحت مألوفة من خلال عملية إعادة القراءة المنتظمة، ونتيجة لذلك، فهي تربط المجتمعات بعضها ببعض، لكن يمكن لأي كتاب، وليس فقط الإنجيل أو القرآن أو المجلدات المقدسة الأخرى، أن يصبح كتابًا مقدسًا بمفرده ويقدم العون؛ بأن يكون مصدرًا للثقة للفرد الذي يشعر بالاندفاع لإعادة قراءته. وإذا أردت، فيمكن لأي كتاب أن يكون جزءًا من شريعتك الخاصة، وإن كتابًا كذاك يغذي ذات القارئ، حتى وإن أعاد قراءة صفحات قليلة منه وحسب. (ويقترح ويلارد سبيغلمان Willard Spiegelman تعريف النص التشريعي الشخصي بأنه شيء بإمكانك أخذه من أي مكان وقراءته للمدة التي ترغب بها)، وأحث القراء على تخصيص (رف قصير) من الكتبِ المفضلة، أيِّ الكتبِ التي تعود إليها غالبًا وتعيد قراءتها (أو جزء منها على الأقل).

إن إعادة القراءة- ليس قراءة الكتاب بأكمله بالضرورة، بل جزء منه- هي طريقة أساسية لتجنب الحكم على المؤلف بسرعة كبيرة، ولعدم الاعتقاد أنه يمكن للمرء فهم الكتاب بسرعة كبيرة. وإذا أراد القارئ أن يمسك بثراء الكتاب، فعليه أن يقيس استجابته؛ عليه أن يرى كيف يختلف انطباعه الأول عن الثاني، وأن يحاول اكتشاف السبب. وإن مقارنة الاستجابات السابقة باللاحقة للكتاب من أجل محاولة فهمه بصورة أفضل هي طريقة لتطوير صداقتك مع الكتاب؛ فنحن عادة ما نحتاج إلى رؤية الشخص أكثر من مرة قبل أن نصبح أصدقاء. إن الوعد الأساسي هو أن كتابًا قد اهتممنا به سيكون ذا وجود مستمر في حياتنا، إذ يعيش الكتاب ليس فقط من أجلنا، أي القراء الذين يعرفون قيمته، بل إنه يعيش معنا أيضًا.

وتتذكر إليزابيث بوين Elizabeth Bowen وهي مؤلفة روائية وكاتبة قصص قصيرة شهيرة، «مطاردة الخيال للحياة وتداخله معها»، الذي يحدث «للجميع... من أولئك الذين يقرؤون بعمق، وضراوة، وغفلة، وبصورة حسية، عندما كانوا أطفالًا». وفي مقالتها الجديرة بالذكر عن القراءة، تصف بوين التعويذة التي تلقيها القراءة على حياة طفل مولع بالكتب، وهي تعويذة تجعل من الحياة حالمة بلا حدود، وأكثر غموضًا:

> **لقد عرَّفتني الكتب على الرغبة والخطر، وضخمتهما لدي؛ إذ إنها مثلت الحياة، مع يقينٍ لم يكن لدي سبب لأتحداه، كما لو كان قضية عناصر جذب وغموض، كان كل شيء أو مكان أو وجه فيها بحد ذاته مجلدًا من الوعود والخداعات، ولم يكن فيها شيء مستحيل. لقد جعلتني الكتب أرى كل شيء رأيته إما بصفته رمزًا أو كأن له مكانًا في أسطورة، في الواقع، لقد أضفت القراءة انحيازًا على مشاهداتي لكل شيء في الأوقات الزمنية التي لم أكن أقرأ فيها.**

وتضيف بوين أن القراءة أعطتها شعورًا بالشخصيات، ولا سيما «تلك التي لا يمكن التنبؤ بها»؛ إذ بدا أنه لم يكن هناك من بين الشخصيات المهمة من يمكن تحليل شخصيته. وهكذا كان لديها شعور راسخ بالحصان الأسود.

وفي نهاية مقالتها، تستدعي بوين الطريقة التي يترك بها الكتاب انطباعه الفاعل، فيختلط بالحياة:

> **قد أرى، على سبيل المثال، طريقًا يصعد في التلال، أو خط الأفق، أو هيكلًا يقترب بهدوء من أعلى التلة؛ إن اقتراب الهيكل بالغ الأهمية، فيرافقه خوف، أو نشوة، أو خوف من النشوة، أو نشوة من الخوف. لكن من يكون ذلك وكيف يكون؟ هل أنا على يقين أن ذلك ليس هيكلًا هاربًا من كتاب؟**

وتصر بوين أن عالم كتاب ما مقروء بشغف كافٍ ليصبح عالمنا أيضًا. فكلما أمضينا وقتًا أكثر فيه، سيطر علينا أكثر، وتلك الحال ليست فقط في الطفولة.

Obeikan.com

لماذا نقرأ؟ نحن نقرأ لأننا نريد الهروب من حياتنا، أن نفقد أنفسنا ونعثر عليها في عالم أجنبي ومثير للاهتمام. وعندما يسحرنا كتاب جيد، نهجر إحساسنا بالوقت، فعندما يكون كتابنا في يدنا، نجد أن أيامًا بأكملها تمضي بسعادة، يصفها جوزيف إيبستين Joseph Epstein بـ «العادة المحببة الانطوائية الأنانية بصورة رائعة، المعروفة بالقراءة»، على الرغم من ذلك، تذكرنا بوين بأننا لا نقرأ لنهرب فحسب، بل لنعيد صناعة حياتنا، ولنشعر بأن منظورنا للحياة يتحول بصورة عجيبة، فكلما قرأنا بتأنٍّ وحرص أكبر، وكلما ربطنا تشرُّبنا للمعلومات أطفالًا مع مهارات المعرفة بالغينَ، واجهنا عجائب أكثر.

الشروع في العمل

أولًا: ثمة نصيحة أساسية: أطفئ الحاسوب المحمول، والتلفاز، وحتى الهاتف، إن أمكنك ذلك (أو، على الأقل، تجاهله عندما يرن)، جِدْ لنفسك كرسيًّا مريحًا وضوءًا مناسبًا للقراءة، ولا تقرأ في وقت متأخر من الليل عندما تكون خائر القوى، ولا تستطيع التركيز. إن اللحظات المسروقة من الوقت هي دائمًا أحلى اللحظات؛ كيوم مثلج مثلًا أو رحلة على متن طائرة (كان نورثروب فراي، الناقد الأدبي الكندي العظيم، يقرأ دائمًا أعمال وولتر سكوت على متن الطائرة؛ فكان يشعر أن الحنطور [عربة تجرها جياد] الموجود في تلك الأعمال يعادل بصورة ملائمة الطائرة النفاثة من العهد الحديث).

متى نقرأ؟ لقد كانت المؤلفة الروائية الفرنسية مارغريت دوراس Marguerite Duras تقرأ ليلًا فقط، ولم تقرأ في ساعات النهار قطُّ. أما والاس ستيفنز Wallace Stevens فقال إن ساعات الصباح الباكر كانت أفضل الأوقات لقراءة الشعر، مثلما كانت للصلاة. ويتصور الشاعر آلن غروسمان قراءاته في وقت الصبا بأنها كانت دائمًا عند الساعة الحادية عشرة صباحًا. فالقراءة بصورة جيدة تعطينا، كما ورد في عبارة هارولد بلووم Harold Bloom شعورًا سرمديًّا بأن الوقت مبكر؛ فقد يكون الوقت منتصف الليل، لكن إن كانت قراءتنا بالقوة والحيوية المطلوبتين، فسيبدو الوقت وكأنه الفجر.

obeikan.com

لكل قارئ مكانه المفضل ليقرأ فيه، ومهما كان ذلك، سيكون ذلك المكان خاصًّا بك ومميزًا؛ فبعضهم يقرأ على مقاعد الحديقة، ويفضل آخرون المقاهي أو المكتبات، في حين لا يشعر آخرون بالراحة في أثناء القراءة- كالمؤلف الروائي الراحل ستانلي إلكين Stanley Elkin – إلا في السرير. ولوضعية الاستلقاء محاسنها، وفي الحقيقة هي وضعية القراءة المفضلة لدي؛ إذ تستطيع التمطط بصورة لا يمكنك القيام بها وأنت جالس على المكتب، وفي ذلك تشبيه في رمز مادي لماهية القراءة بصفتها الترياق الضروري للعالم الباهت المتعلق بالتحصيل والإنفاق. ويشير إلكنز إلى وعيه الغامض- ولكنه ملازم له- بأن العالم المغلق الآمن للقارئ يوصي بالتحضير للموت؛ وقد يفسر ذلك، كما يقول، ميوله للقراءة مستلقيًا، فيكتب: «إن لذلك علاقة بالبقاء وحيدًا، والانعزال عن العالم، والتعامل مع الكتب كما لو كانت مسبحة، أو أصواتًا تأملية، أو صلاة أو زكاة»، لكننا نحلم ونحن مستلقون معظم الأوقات، والعنصر القوي للخيال والحرية في هذه الأنشطة هو ما يحدد صلتها بالقراءة. وعلى كل، فإن قلة يقرؤون واقفين. أما المشي فهو أمر مختلف، فأتذكر أنني كنت أقرأ في طريق عودتي إلى المنزل صغيرًا، بعد أن أكون قد تفحصت كتابًا جديدًا مثيرًا بصورة خاصة من المكتبة، كنت أتوق إلى الحصول عليه؛ وبين الحين والآخر كنت أرى صبيًّا أو فتاة في الشارع يفعلون الأمر نفسه، ويرافقهم أحد الوالدين الذي طُوِّع لينتبه إلى الإشارات الحمراء.

أينما قرأت، وأيًّا كانت الطريقة، تذكر أن تستمتع، والمتعة تتطلب التركيز، فإذا شعرت عندما تقرأ وكأنك تكدح، فمعنى ذلك أنك بعيد كل البعد عن كتابك، ومشتت التفكير، وبالنتيجة فأنت راغب عن إلزام نفسك بصفحاته. وبينما تقرأ، تذكر أنك والكتاب فقط معًا، ولا شيء آخر مهم. إن الصفحة مكان مضيء، حقيقة ومجازًا، وأنت بحاجة إلى بناء سياج حوله، لتتمكن من الدخول إلى ذلك الوميض، وعندما تقوم بكل ذلك، تكون جاهزًا لقواعد القراءة التالية.

Obeikan.com